

موقع (النحت والاغتراف) في النقد العربي

أ. د رشيد عبد الرحمن العبيدي
الجامعة الإسلامية - عميد كلية البنات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا آخر بحث سلمه المرحوم قبل وفاته بأيام رحمه الله تعالى
قد يبدو أنَّ في عنوان البحث : (النحت والاعتراف) شيئاً من الغرابة ، وذلك لأن النقاد في
الأدب لم يلتفتوا الى المقولة التي أطلقها أحد النقاد القدامى على شعري جرير والفرزدق حين أراد
التفريق بينهما بسمات وخصائص مميزة .

إن جرير يغرف من بحر ، والفرزدق ينحت في صخر^(١)، وهي مقولة ذات أبعاد نقدية دقيقة
وضعت كل واحد منهما في الموضع الذي تفرد به من بين شعراء الحقبة التي عاشها ، ووسمت كل
واحد منهما بسمه خاصة ، بحيث أصبح المتلقي لشعر واحد منهما يستطيع ميز هذا من ذاك .
وأصبحت هذه المقولة معياراً نقدياً للشعر العربي في مسيرته الطويلة منذ قيلت ، حتى هذه
اللحظة ، بل لعنا يمكننا على شعراء سبقوا جريراً أو الفرزدق من شعراء العصر الجاهلي ، ثم
الإسلامي فالأموي، فنستطيع أن نقول في أن فلاناً من شعراء الجاهلية كان ينحت في صخر بسبب ما
امتاز به شعره من خصائص لغوية وتركيبية تدل على عنايته بالشكل واستخدام الصيغ والبنى والألفاظ
، وتصوّفه في السبك والصياغات التركيبية مما سنشير إليه فيما يلي من البحث على أنه من خصائص
الشعراء النحاتين ، كما نقول أن فلاناً من شعراء الجاهلية أو الإسلام كان يغرف من بحر بسبب ما
امتاز به شعره من خصائص فنية دلالية انسيابية غير مصنوعة .

لقد كثرت في نصوص النقاد المتقدمين جمل ومفردات تقترب في دلالتها من (النحت
والاعتراف) حين يريدون وصف شعر لشاعر، أو حين يريدون تقويمه وبيان قدراته على النظم
وحسن البناء وجمال الصور .

وهذه السياقات هي التي تحدد مفهوم النحت في الشعر ، كما تفيد مفهوم الاعتراف فيه ، والنحت
تدور دلالاته على القطع في الصلب من الأشياء كالخشب والصخر والجبل وجسم الحيوان ، في حين
تدور دلالة الاعتراف على المادة السائلة كالماء والمرق وما يجري مجراهما ، فإن توسع المتكلم
صرف دلالتها الى استعمال مجازي كغرف عَرَفَ الفرس وناصيته بمعنى جزّهما ، ونحو : تَغَرَفَني
فلان ، بمعنى : أخذ كل شيء معي^(٢) ، وهما استعمالان مجازيان^(٣)

(١) ورد على لسان النقاد العرب في صفة الشعراء لفظ النحت بمعان ، ومنها النوع أو الطريقة التي يصاب
الشاعر فيها كلامه ، انظر : العمدة : ١ / ١٢٤ والموشح : ٢٨١ .

(٢) القاموس : ١٨٦ / ٢ (غرف) .

(٣) اساس البلاغة : ٦٧٦ (غرف) .

ومن هنا يكون لاستعمال : (النحت في الشعر) دلالة مجازية فكأن الشاعر ينحت من الألفاظ والتراكيب عبارات شعرية منظومة ببذل جهد لغوي ، وبصفة تمكنه من الصياغة الشعرية التي يقتدر عليها .

ويكون (الاغتراف فيه) ذا دلالة مجازية أيضاً إذ إن الشاعر يتناول الألفاظ والمعاني تتالوا إنسياباً ، غير متكلف ، فكأنه يغترف ما يرد على لسانه من القول ، غير ناظر في حوكه ، وتدبر الفاظه ، والتصنع في سبكها وصياغتها ، ولذلك يصدق عليه أن يقال له : (مطبوع) .

ولكن الرجلين أعني : (الناحت والمغترف) يتفقان في أنهما يبدعان شعراً جميلاً ومعاني رشيقة وصوراً ملونة ويختلفان في القدرات التي يمتلكانها في التعبير عن كل ذلك ، يقول الجرجاني صاحب الوساطة : الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه ، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرر ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان^(١) ، وقال : ولست أفضل في هذه القضية بين القديم والمحدث والجاهلي والمخضرم والأعرابي والمولد إلا أنني أجد حاجة المحدث الى الرواية أمس وأجده الى كثرة الحفظ أفقر فإذا استكشفت عن هذه الحال وجدت سببها والعلة فيها أن المطبوع الذكي لا يمكنه تناول ألفاظ العربي إلا رواية ، ولا طريق إلى الرواية إلا السمع ، وملاك السمع الحفظ^(٢) ، ومن خلال ما تقدم يمكن التفريق بين المصطلحين .

مما سنعرفه عن معنى الاغتراف ، ودلالته الفنية النقدية .

وقبل الخوض في تطبيق مبدأي الاغتراف والنحت على الشعر لا بد لنا أن نتبين دلالة اللفظين لغة ، ثم نحاول بعد ذلك أن نعطي لهما تعريفاً اصطلاحياً يقرب اللفظين من دلالتهما النقدية وما يراد بهما عند اطلاقهما على شعر الشاعر .

والنحت مصدر الفعل نحت ، والمعنى قطع ، وجاء في التنزيل العزيز { وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ }^(٣) ، أي تحفرون وتقطعون صخورها وتجعلون منها بيوتاً لكم .

في المعجمات اللغوية: النحت: النشر، كنحت النجار الخشب، ونحت الجبل ينحته قطعه، والنحاتت آبار معروفة، نحتت أي قطعت وحفرت، ونحت السفر البعير والإنسان، نقصه^(٤)، وفي الصحاح: نحته ينحته – بالكسر – نحتاً: براه^(٥)، ويقال: وجمل نحت، وهو الذي أنحتت مناسمة، ونحت السفر الإبل

(١) العمدة : ١ / ١٢٢ ينقله عن الوساطة ، وانظر من العمدة ايضاً : ط ١ / ص : ١١٦ في من يصدق عليه اسم الشاعر .

(٢) نفسه : ١ / ١٢١ - ١٢٢ ، وانظر ايضاً : ١ / ١١٥ - ١١٦ .

(٣) الشعراء : ١٤٩ .

(٤) اللسان : ٢ / ٤٠٣ - ٤٠٤ (بولاق) .

(٥) الصحاح : (نحت) .

براهها^(١) وأنصاها^(٢) ، ومن هنا يأتي النحت، بمعانٍ متقاربة كالقطع والبري والإنصاء والقشر ، كما يأتي لمعان أخرى ذكرتها معجمات اللغة، لسنا بحاجة إليها في موضوعنا الذي نبحث فيه^(٣) .

أما لفظ (الاغتراف) فهو مصدر الفعل (اغترف) الذي يترادف في دلالاته مع ثلاثيه (غرف) ، وفي معجمات اللغة: غرف الماء والمرق، ونحوهما يغرفه غرماً واغترفه واغترف منه "و" غرفت الماء بيدي غرماً والغرفة والغرفة: ما عُرف، وفي التنزيل العزيز { ... إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً... }^(٤)، ومعناه: الماء الذي يغترف نفسه، وهو الاسم والغرفة المرة من المصدر

فمن النوع الأول ما قيل في شعر أبي نؤاس، فقد صاحب العمدة: أن أبا نؤاس قوي البديهة والارتجال لا يكاد ينقطع ولا يروي^(٥) إلا فلتة، (روي أن الخصيب قال له مرة يمازحه وهما بالمسجد الجامع: أنت غير مدافع في الشعر، ولكنك لا تخطب، فقام من فوره يقول مرتجلاً^(٦)) :

منحتكم يا أهل مصر نصيحتي	ألا فخذوا من ناصح بنصيب
رماكم أمير المؤمنين بحية	أكل لحيات البلاد شروب
فإن يك باقي سحر فرعون فيكم	فإن عصا موسى بكف خصيب

ثم التفت إليه وقال : (والله لا يأتي بمثلها خطيب مصقع فكيف رأيت ؟ فاعتذر إليه وحلف : إن كنت إلا مازحاً)^(٧) .

والذي يتأمل أبيات أبي نؤاس يجدها خالية من التعقيد بعيدة عن التصنع ، تجري مجرى الماء في مسبله من غير أن يعترضه شيء ، وانما ذلك صورة من صور الاغتراف ، وكذلك قالوا في شعر أبي العتاهية^(٨)، إنه كان لا يتفكر ولا يتروى وإنما يقول الشعر فكأنه يغترفه اغترافاً من غير جهد .

ووصفوا شعر أبي تمام بالتكلف، ولكنهم وصفوا شعر البحتري بالمطبوع فقالوا: (سبحان الذي حول تكلف أبي تمام الى البحتري، وطبع البحتري الى أبي تمام)^(٩)، وذلك أنهم وقفوا على شيء من شعر أبي

(١) اساس البلاغة : (نحت) .

(٢) القاموس : (نحت) .

(٣) انظر : القاموس المحيط : (نحت) والتاج (نحت) .

(٤) البقرة : ٢٤٩ .

(٥) أي : يتأمل ، ويتروى فيما ينظم ، وانما يأتي الشعر على لسانه مسترسلاً .

(٦) العمدة : ١ / ١٩٠ .

(٧) العمدة : ١ / ١٩١ .

(٨) ينظر العمدة : ١ / ١٩١ والموشح : ٤٠١ .

(٩) الموشح : ٥٠٨ .

تمام ، و خلا من الكلفة والصنعة ، ووقفوا على بعض شعر البحتري ، وقد حاول فيه محاكاة اصحاب البديع والمحسنات اللفظية .

والذي يدل على أنهم قصدوا الى معنى (الاغتراف) في أحكامهم على جودة الشعر ورداءته ، انهم ميزوا بين من يجري على طبعه غير ناظر الى قوة السبك وشدة أسر البناء اللغوي وبين من يجمع بينهما ، فيجود شعره ، ويأتي به جامعاً لخصائص الشعر الجيد .

كان بين منصور النمرى وأبي العتاهية محاورة في شعريهما فقال منصور : (في كم تقول القصيدة وتحكمها ؟ قال : إلا أن أضع قنينتي بين يدي حتى أقول ما شئت ، أما على قولك ، فأنت تقول ما شئت ، ولكنني ما أخرج القصيدة إلا بعد شهر ، حتى أمحو بيتاً ، وأجدد بيتاً ، ثم أخرجها وانما الشعر عقل المرء يظهره^(١) .

وفي مثل ذلك ما حصل بين أبي العتاهية ، وابن منذر^(٢) .

ولذلك كان النقاد يصفون شعر أبي العتاهية : (بانه لا ينجو من الخطأ الفاحش والقول السخيف) مع (رقة طبعه وقرب متناوله ، وسهولة نظم المنثور عليه ، وسرعته الى ما يعجز المتأني بلوغه^(٣) .

وظهر للنقاد ذلك ايضاً في شعر أبي نؤاس، عندما وصفوه برقة الطبع ، وحلاوة المأخذ، وقرب المتناول، ولكنهم وصموه بنقصان البناء، يقول أبو عبيدة^(٤): (ابو نؤاس هو بمنزلة بان آله، ونقص بناءه، وكان ينبغي أن يكون بناءه أجود)، (والطبعي ربما أساء وفرط ، ثم يبعثه طبعه على السوء الجيد^(٥) .

ونظر النقاد الى شعر بشار بن برد فراوه يمتلك قوة الطبع ، والترسل فيبعث في نفس السامع هزة وجلبة، فقالوا: بشار : ينشد أقصر شعره عروضاً ، وأبيته كلاماً ، فتجد في نفسك هزة وجلبة من قوة الطبع^(٦)، وذلك لا يتأتى لمن يتكلف النظم ، ويغرق في الصنعة ، ويبالغ في الحياكة التي قد تغلف تغلف المعاني، وتعقدها، وذلك مما عده النقاد في عيوب الشعر^(٧) .

(١) الموشح : ٣٩٧ - ٣٩٨ .

(٢) نفسه : ٣٩٨ - ٣٩٩ .

(٣) الموشح : ٤٠١ .

(٤) نفسه : ٤٠٧ .

(٥) نفسه : ٤١٥ .

(٦) العمدة : ١ / ١٣١ .

(٧) ينظر : عيار الشعر : ٨٩ ، وكتاب الصناعتين : ٣٥٧ .

ومن هنا كان تقديم جرير على غيره من الشعراء بسبب ما امتلك من الطبع والترسل، والكلام الجزل، يقول الأصفهاني: من كان يميل الى جودة الشعر وفخامة وشدة أسره ، فليقدم الفرزدق، ومن دون كان يميل الى اشعار المطبوعين، والكلام السمج الجزل فليقدم جريرا^(١) .

ولعل جريرا كان يعلم بمنزلة شعره بين شعراء عصره، فقد روى عكرمة ابنه قال: قلت لابي: من اشعر الناس؟ قال: أجاهلية أم اسلامية؟ قلت: جاهلية، قال: زهير، قلت: للإسلام؟ قال: الفرزدق، قلت: فالأخطل؟ قال: قال يجيد نعت الملوك، ويصيب صفة الخمر، قلت له: فأنت؟ قال: أنا نحرت الشعر نحرا^(٢) .

وذكر نوح ابنه مقالة عكرمة، ولكنه نقل انه قال: (أنا مدينة الشعر)^(٣)، وانما كان ذلك منه، لانه يسيل طبعه، ویترسل في ألفاظه ، فلا ينظر فيما يخرج من فيه ، متروياً أو متفكراً في لفظ أو صياغة، ولذلك قال فيه الاصمعي: (كان جرير قليل التنقيح مشرد الالفاظ)^(٤)، وقال بشار في شعره: (كان جرير جرير يحسن ضروبا من الشعر، لا يحسنها الفرزدق) وفضل جريرا على الفرزدق لما يتميز به جرير من رشاقة الالفاظ وسهولة المأخذ والوضوح^(٥) .

ويرى ابن سلام الجمحي ان شعر جرير عذب حلو متميز من غيره وان (أهل البادية بشعر جرير أعجب)^(٦) .

ولقد استكثر النقاد من التفريق بين الشاعرين البحتري وابي تمام ، ولقد مر معنا مقالات لهم في شعر البحتري الذي وضعناه في صف المغتربين ، لما تميز به شعره من التدفق بالمعاني وسهولة السبك وقرب المأخذ، في حين ذهبوا الى ان أبا تمام كان في شعره يذهب الى (حزنونة اللفظ، وما يملأ الاسماع منه، مع التصنيع المحكم طوعا وكرها ، ويأتي للأشياء من بعد، ويطلبها بكلفة، ويأخذ بقوة)^(٧) .

وهذه اللمسات التي قيلت في شعر ابي تمام ، هي سمات الشاعر (النحات) الذي يكلف نفسه التنقيش عن الألفاظ الغريبة ، ذوات القوة في الجرس بحيث " تملأ الأسماع " والميل الى الصناعة البديعية من تجنيس وطباق ، ومقابلة وتورية ، واستعارات وكنائيات وتشبيهات " طوعاً وكرهاً " .

والإشارة الى المعاني البعيدة ، مما يثقل الشعر بالغموض والتعقيد ، ويضفي على شعره سمة التكلف ، والأخذ بقوة الإرادة ، لا بالطبع والسجية .

(١) خزانة الادب : البغدادي : ١ / ١٠٧ .

(٢) الخزانة : ١ / ٣٧٥ .

(٣) الموشح : ٢٠٧ .

(٤) نفسه : ١٩٨ - ١٩٩ .

(٥) نفسه : ١٨٣ - ١٨٤ .

(٦) طبقات فحول الشعراء : ٣١٦ .

(٧) العمدة : ١ / ١٣٠ .

وإذا كان من الشعراء المتقدمين من وصفوا بالتقيف والتقيح والتحكيك والتحبير فإنما كان ذلك لما كانوا يأخذون أنفسهم من النظر الطويل فيما يصوغون من شعر ، وينتقون من ألفاظ ، ويعدلون من تراكيب وأبنية وصيغ ، حتى يستوي شعراً متيناً جزلاً في نظرهم ، وقد كان طفيل الغنوي ، وزهير بن أبي سلمى والنمر بن تولب ، والحطيأة وغيرهم قد اشتهروا بهذه الصفة فدخلوا في عداد (النحاتين) في صياغاتهم الشعرية ، وكان زهير يسمى محبراً ، لحسن شعره^(١) .

وهذا الضرب من الشعراء يجد في بناء قصيدة شعرية مشقة وصعوبة ، ويدخل مخاضاً مؤلماً من بذل الجهد والتفكير والرؤية والتفتيش عن العبارة القوية واللفظة الملائمة والمعنى الشريف . ولذلك كان عمل الشعر على الحاذق به أشد من نقل الصخر ، وقالوا : (الشعر كالبحر أهون ما يكون على الجاهل أهول ما يكون على العالم ، واتعب أصحابه قلباً من عرفه حق معرفته ، وأهل صناعته الشعر أبصر به من العلماء بآلته من نحو وغريب ومثل وخبر ، وما أشبهه ذلك ، ولو كانوا دونهم بدرجات وكيف ان قاربوهم أو كانوا منهم بسبب^(٢)) .

ويتميز الشعراء في مستوياتهم وقدراتهم وثقافتهم ، ويؤدي هذا التمايز الى اختلاف فيما ينتجونه من شعر ، فمن الشعراء من يؤثر اللفظ على المعنى فيجعله غايته ووكده .. ومنهم قوم يذهبون إلى فخامة الكلام وجزالته على مذهب العرب من غير تصنع كقول بشار :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية	هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
إذا ما أعرنا سيداً من قبيلة	ذرى منبر صلى علينا وسلما

وهذا النوع أدل على القوة وأشبه بما وقع فيه من موضع الأفتخار ، وكذلك مامدح به الملوك يجب أن يكون من هذا النحت^(٣) .

ومع أن لفظ (النحت) قد جاءت في آخر العبارة الواصفة لشعر بشار ، تدل على أنه يريد بها الضرب ، أو الصنف من الشعر ، إلا أنها تحمل المعنى الذي نحن نبحت فيه ، وهو مايتضمنه العبارة بمجموعها من كون شعر بشار : (يؤثر اللفظ) و (فخامة الكلام وجزالته) (من غير تصنع) ، وهي السمات التي يتصف بها شعر النحاتين من الشعراء . مع أتصافهم بجودة الطبع .

ولقد تبينت هذه السمات ، واضحة في بعض مقولات هذا النمط في الشعراء ، فحينما سئل أحدهم ، عن الغموض في شعره ، وتداخل معانيه ، وانغلاق عباراته على الفهم قال :

(١) العمدة : ١ / ١٣٤ ، وانظر الخزانة : ١ / ٣٧٥ .

(٢) نفسه : ١ / ١١٧ .

(٣) نفسه : ١ / ١٤٢ .

علي نحت القوافي من مقاطعها

وما علي إذا لم تفهم البقر

أستقبح أبو حاتم بعض شعره - وهو أبو تمام . واستحسن بعضه الآخر ، وكان أحدهم يقرأ عليه شعره ، فيسأله عن المعاني ، فلا يعرفها أبو حاتم ، فلما فرغ قال : (مأشبه شعر هذا الرجل إلا بخلقان لها روعة وليس لها مفتش) وكان أبن الاعرابي يقول في شعره : أن كان هذا الشعر فما قالت العرب باطل) ، وقال حذيفة بن محمد الطائي : ((أبو تمام يريد البديع ، فيخرج إلى المحال ، وقال دعبل فيه : (لم يكن أبو تمام شاعراً ، وإنما كان خطيباً ، وشعره بالكلام أشبه منه بالشعر ، وكان يحيل عليه ، ولم يدخله في كتابه : كتاب الشعر)^(١).

وأما كان ذلك كله في شعر أبي تمام ، لأنه كان يكثر من التصنع ، ويتكلف في صياغته ، ويتأنق في ألفاظه ويبعد في المعاني ، فيحيطها الغموض ، وتغيب عن الفهم إلا بعد تدبر ، ولذلك قال له رجل : " يا ابا تمام لم لا تقول ما يفهم من الشعر ، فقال وأنت لم لاتعرف من الشعر ما يقال " ^(٢) ، وفي الموشح انه : يغوض على المعاني الدقاق ، فربما وقع من شدة غوضه على المحال ^(٣) . ولذلك لم تعرف النقاد معنى: ((غض الإباء أو الرأي)) في شعره ^(٤) . حيث قال:

فهو غض الإباء والرأي والحز

م وغض النوال غض الشباب

قال في الموشح : لا والله ما أدري مامعنى ، غض التأبي ولاغض الرأي في المديح " . وهؤلاء الشعراء - أعني النحاتين - مغرومون بهذا النهج من الصياغات ، والتأنق ، وحب الشعر ، وهم إنما يصنعون ذلك ليميزوا من الآخرين الذين يقولون الشعر من غير تنقيف وتفكر ونظر في صياغته ، ونسيجه اللغوي ، وكان الفرزدق يقول لعبد الله بن أبي إسحاق : (علينا أن نقول ، وعليكم ان تتأولوا) ، وذلك حين أنكر عليه بعض شعره ، لما وجد فيه من تراكيب وصياغات لم يألّفها - من نحو قوله :

وما مثله من الناس إلا مملكا

أبو أمه حي أبوه يقاربه ^(٥) .

فقد (أتعب أهل اللغة والنحو بشرطه ، منهم سيبويه ، فمن بعده ، ولم يبلغوا منه ما يقتنع ويرضى) ^(٦) . وحين وقف المبرد على قوله ^(٧) :

وإذا الرجال رأوا يزيد رأيهم

خضع الركاب نواكسي الأبصار

(١) الموشح : ٤٦٥ .

(٢) أخبار أبي تمام للصولي : ٧٢

(٣) الموشح : ٤٩٩

(٤) الموشح : ٤٨٨ وأنظر الصفحات ٤٧٠ - ٤٧١ - ٤٧٢ و ٤٩٩ - ٥٠٠ من الموشح .

(٥) الديوان : ٤١ وفيه : مملك : بأرفع ، وأنظر : الايضاح : للقرظيني ٧٦-٧٥/١ .

(٦) الموشح : ١٦٥ ووصفه أبو عمرو بن العملاء بالبديوي مع أقامته في الحضر . الخزانة ١٠٧/١ .

(٧) الديوان : ٦١ والضرائر : ١٨٨ .

قال : " في هذا البيت شيء يستطرفه النحويون ، وهو أنهم لا يجمعون ما كان على (فاعل) نعتاً : "قواعل" ، لئلا يلبس بالمؤنث ، لا يقولون : ضارب وضوارب ، وقاتل وقواتل ، لأنهم يقولون في جمع : "ضاربة" : ضوارب ، و"قاتله" : قواتل فلما احتاج الفرزدق لضرورة الشعر أجاء على أصله ، فقال : (نواكسي الأبصار) ، ولا يكون مثل هذا -ابداً- إلا في ضرورة "(١).

وما أظننا نجد مثل هذا الخروج عن قياس العربية عند جرير ، كما لانجد مثل تعقيداته التعبيرية في شعره ، وحين سأل الفرزدق زوجه عن رأيها في شعره ، وشعر جرير قالت : "قد شركك في حلوه وغلب على امره"(٢).

ولعل عبارة مسلمة بن عبد الملك التي وصف بها شعر الفرزدق وجرير ، وهي (أن الفرزدق بيني وجريرا يهدم) وليس يقوم مع الخراب شيء "(٣) . أراد بها : أن البناء عند الفرزدق هو العناية بالسبك اللغوي ، وشدة أسر التراكيب اللغوي وتمسكها ، وإن جريرا يترك للعبارة حريتها ، ولل كلام ترسله من غير نظر في رصفه ، ونضد ألفاظه الإماجيء عفو الخاطر والبديهة ، وهو ما يتفق مع مفهوم الاعتراف

ومثل ذلك ما قيل في شعري العتابي والعباسي بدم الأحنف ، فقد وصفوا شعر الأول بأنه : "متكلف" والثاني بأنه "يتدفق طبعاً" وأن كلام الأول "متعقد كز" والثاني : "سهل عذب" الأول : "في شعره غلظ وجساوة" والثاني : "في شعره : "ماء ورقة وحلاوة" "(٤).

إن موضوع (النحت والاعتراف) قضية نسبية ، لأن الشاعر النحات لم يكن كلامه كله وفقاً على هذه الصفة - أي : نحت القصيدة ، وتكلف صياغتها ونسجها ، وإلا كان واضح التعقيد كثير الارتكاب لما يأخذه النقد من مأخذ على الشكل اللغوي ، وتكلف الصنعة فيه ، كما كان موقف عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي من الفرزدق ، وصياغتها اللغوي ، بل : إن ذلك قد يكون سمة غالبية على الشاعر ، ومن جهة أخرى ، فإن طبع الشاعر ، وقدراته الشعرية ، تخفت أمام التكلف والتصنع ، وتطغى ظاهرة الصنعة ، والنفاد يرون ذلك واضحاً في شعر أبي تمام فقد رواه ينحت الأمثال العربية نحتاً ، في شعره ، ويضمنها كلامه حتى قالوا في قوله : "(٥).

يقوم نواصيها جذيل مشارق إذا آبه هم عذيق مغارب

يريد : أنه كثير الأسفار ، وأراد بذلك قول القائل (أنا جذيلها المحكك وعذيقها الموجب ، ووصف بالتكلف التبغطي) "(٦).

(١) الموشح : ١٦٧ .

(٢) نفسه : ١٦٨ وفي رواية أخرى : (غلبك على وشركك في مره) ١٦٩ من الموشح.

(٣) نفسه : ١٨٦ .

(٤) نفسه : ٤٥٠ .

(٥) ديوانه : ٣٤ .

(٦) الموشح : ٤٧٠ - ٤٧١ و ٤٨٢ .

وهذا النوع من التقويم النقدي ، وصف به شعراً (أوس بن حجر) ، لأنه كان كثير التفتيح ، يستخدم عقله في صياغة شعره ويضمنه الأمثال ، ويعني بمكارم الاخلاق ، فكان "عاقلاً في شعره ، كثير الوصف لمكارم الأخلاق ، وهو من أوصفهم للحمير والسلاح ، لا سيما للقوس ، وسبق إلى دقيق المعاني وإلى أمثال كثيرة " (١).

وذو الرمة - بعد نظمه القصيدة - يرجع إليها ثانية ليرى ألفاظاً ، وينظر في بنائها ، فيغير ، حتى يستقيم له ، فقالوا فيه : "كان ذو الرمة إذا ستظف الحرف أبدل مكانه" (٢). وقالوا : كان إذا أراد أن ينظم مطلعاً لشعره أنقطع ، حتى يسمع شيئاً من الكلام يفتح له النظم ، فيصوغه مطلعاً (٣). وكذا كانت صفة الكميت بن زيد (٤).

وليس المغترف - ايضاً - بمستقر على (الاغتراف) ، بل لابد له من النظر في ألفاظ قصيدة ، وفي موسيقاها ، ودقة مؤداها للمعاني التي يقصد إليها ، والإ كانت مأخذ النقاد كثيرة على الشعره ، ومن ذلك ما أخذ على جرير وهو المعروف بأنه (يغرف من بحر) ، فقد قيل في بعض شعره : أنه متداخل المعاني ، يعني ببعضها ، ويمهل بعضها الآخر بسبب عدم النظر في ما جاء على لسانه من المعاني ، وقد أنتقدوا عليه قوله في بني حذيفة :

صارت حذيفة أثلاثاً فتلثهم من العبيد بثلاث من مواليتها

فقالوا : "إن هذا الشعر أنشده في المجلس ، ورجل من بني حذيفة حاضر فيه فقل له : من أيهم أنت ، فقال : من الثلث الملغى ذكره " (٥).

وأجود الشعراء من يجمع بين (النحت والاغتراف) ، فلا يغلب التصنع والتكلف ، والعناية باللفظ على تخير المعاني ، ورسم الصورة الجميلة ، والتعبير عن العواطف والمشاعر الذاتية ، وإنما يراعي ذلك كله في صناعته الشعرية ، فيجمع إلى تخير الألفاظ ومتانة التعبير ، حلاوة الطبع ، وجمال الصورة ، وأنسيابية النظم ، فلا يكون كما قيل في قول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكاً أبو امه حي أبوه يقاربه (٦)

فيه هجنة بما أوقع فيه من القديم والتأخير ، حتى كأن هذا الشعر لم يجتمع في صدر رجل) وهو

(١) الخزانة (طوبلاق) : ٢٣٥/٢

(٢) الموشح : ٢٨٩.

(٣) نفسه : ٢٩١.

(٤) نفسه : ٣١٠ - ٣١١.

(٤) الموشح : ١٢٤ - ١٢٦ ففي هذه الصفحات شيء كثير من مثل ، وانظر : نقد الشعر قدامة : ١٠٦ -

١٠٧ - ١٠٨ و ١١٧ وأنظر - : الصاعيتين ٣٥٧ ، وعيار الشعر : ٨٩ .

(٥) ديوانه : ١٠٨ ، وأنظر الايضاح ٥٧/١ - ٧٦ .

من (أفح الضرورة ، وأهجن الألفاظ وأبعد المعاني) (١).

وكثير من شعراء العربية ، يراعي جمالية فنه الشعري ، ويحاول أستكمال أدواته التعبيرية والدلالية ، حين يضع قصيدته ، ويضاهي بها شعره غيره ، ليتميز من غيره، وذلك واضح في الشعر المتنبي والبحتري وأضر بها من شعراء العربية من الجاهلية والاسلام، كأمرئ القيس وزهير وليبد، والكميت ، وعمر بن أبي ربيعة ، وجميل بثينة وأضرابهم. وحين سأل الاسمعي عن طبقات الشعراء ، جعل منهم مجموعة من الفحول ومجموعة قاربوا أن يكونوا فحولا ، ومجموعة نقيصتهم أدوات الفحولة ومجموعة بعيدين منها ، ومن هؤلاء : عمرو بن كلثوم ، وغزة بن الورد وحמיד بن ثور ، وأبن مقبل ، وأبن أحمر ، والأعشى وغيرهم ، فلم يعدم من الفحول ، فقد سئل في أعشى قيس بن ثعلبة : أفحل هو ؟ قال : لا ليس بفحل ، فقل له : مامعنى الفحل ؟ قال : يريد أن له مزية على غيره ، كمزية الفحل على الحقائق ، وبيت جرير يدل على ذلك ، ثم أنشد (٢):

وأبن اللبون إذا ما لز في القرن لم يستطع صوله البزل القناعيس (٣)

فهؤلاء ما كانوا من الفحول ، وعد" امرأ القيس وزهير وليبدا" وكعب بن جعيل - ظنا - (٤) فحولا . واشترط في آخرين صفات لو توافقت ، لبلغوا الفحولة ، من مثل : معقر بن حمار" لو أتم خمسا أو ستا" ، وكعب بن مالك هو فحل في القصيدة التي رثى بها أخاه ، ولم يكن فحلا في سائر شعره ، والسود بن يعفر (يشبه الفحول) ، وأوس بن مغراء ، ولو كان له عشرون قصيدة للحق بالفحول " وهكذا جاءت أحكامه على الشعراء ، لما تميزوا به من سمات تتصل بلغة شعرهم والمعاني التي تجلت صورها في أساليبهم التعبيرية (٥) ولذلك يمكن القول في : أنهم جمعوا بين سمة (الأعتراف) وسمة (النحت) ، فربما أقدر الشاعر منهم على المزج بين السمتين فأبدع ، فبلغ مرتبة الفحول ، وأخفق بعضهم في الجانب من خصائص السمتين ، فوضعه الأصمعي في الموضع الذي أرتاه (الفحولة) ، أو عدمها " أو" المخل بشرط من شروطها "أو" اشبيه بالفحل " أو" الذي عد بالفرسان وخرج من الفحولة .

وإنما جاءت هذه الأحكام ، لتؤكد أن النقاد كانوا يشعرون بقية الأسس الفنية في صياغة الشعر الجيد وعلو كعب الشعراء فيه ، أو إخفاقهم في تناول تلك الأسس ، وتطبيقها ، فيجيء شعرهم قاصرا عن أن يبلغ مرتبة الأقران المتقدمين فيه .

فمن حاول الجمع بين السمتين شعراء، أحس النقاد بامتلاكهم تلك الخصائص المميزة ، ولكنهم يقعون تحت وطأة جانب دون آخر، فيغلبون أعلى مراتب الإبداع في قسم منه ، ويبدو التكلف والتصنع في قسم آخر

(٦) الضرائر : أبن عصفور : ٢٥١ .

(٢) ديوان جرير : ٣٢٣ وطبقات ابن سلام : ٥٤

(٣) الموشح : ٦٣ ط : ١٩٦٥ م ، دار نهضة مصر .

(٤) الاصمعيات : ١٩٣

(٥) أنظر في ذلك : الموشح ١١٩ فما بعد والاصمعيات : ١٩٣ وأبن سلام : نقد الشعر : ١٠٦ الخزانة : ١/

فقالوا في بعض شعر أبي نؤاس - مثلاً - : " كانت عنده - مع صنعه ، فإذا أخذ في الحلاوة والرفقة ، وعمل بطبعه وسجيته أشبه الناس ، ودخل في جملة الفضلاء ، وإذا تكلف الفخامة ، وسلك طريق الصنعة آخر بنفسه واتعب سامع شعره " ^(١) وحين سمع النقاد قوله ^(٢):

لاتعرج بدارس الأطلال وأسقيها رقيقة السربال

قالوا : " هذا المصراع - يعنون البيت كله - فائق في جودته جداً رقة ولطافة وسلسا ، وتمامة غير مرضي ، وهو قوله

مات أربابها وبادت قراها وبرأها الزمان بري الخلال ^(٣).

فرموه بالتناقض والضعف بين البيتين .

وكان ثعلب يرى في زهير الذي عده الصمعي من الفحول مجيداً بارعاً ، متفوقاً على أقرانه من الشعراء لما يمتلك من جزالة اللفظ ، وقوة التعبير ، والسلاسة والوضوح في معانيه وفي أمثاله ، فهو يرى أنه (أحسنهم شعراً وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعنى ، في قليل من المنطق ، وأشدّهم مبالغة في المدح وأكثرهم امثالاً في الشعر) ^(٤).

ومعلوم أن زهيراً كان الشعر عنده طبعاً ، وسجية فقد عرفت أسرته بالشعر المتوارث ، يقول ابن الأعرابي : "كان أبوه شاعراً ، وخاله شاعراً وأخته سلمى شاعرة ، وأخته الخنساء شاعرة ، وأبناء كعب وبجير شاعرين ، والمضرب بن كعب شاعراً ، وهو الذي يقول :

أني لأحبس نفسي وهي صابرة عن مصعب ولقد باتت لي الطرق

وكعب هو ناظم : بانئت سعاد ^(٥).

والمتنبّي شاعر عملاق حين يجمع بين طبعه ، وعنايته بلفظه ، فيجيء شعره غاية في الجمال ، وروعه الفن ، ومعظم قصائده التي تصدر عن نفس مكلوم ، وعواطف جياشة ، وأحاسيس ملتهبة ، ممزوجة بقدراته التعبيرية العالية ، وثروته اللغوية الكبيرة ^(٦)، من نحو :

وأخر قلباه ممن قلبه شبيب ومن بجسمي وحالي عنده سقم

ونحو قوله :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

(١) العمدة : ١٢٥/١ .

(٢) ديوان أبي نؤاس : ٢٨٢ .

(٣) الموشح : ٤١٨ .

(٤) خزانة الأدب : ٣٧٦/١ .

(٥) الخزانة : ٣٧٥ / ١ - ٣٧٦ .

(٦) أنظر : معاهد التنصيص : العباسي ١٠ / ١ فما بعد ط : ١٣١٦ هـ - مصر .

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة

ووجهك وضاح وثغرك باسم

وقوله :

أما الأحبة فالبيداء دونهم

فليت دونك بيذا دونها بيد

أصخرة أنا مالي لاتحركي

هذي المدام ولاتك الأغاريد

على غير ذلك من شعره المعبر عن النفسي الطموح ، والروح الوثابة بلغة جلزة ، قوية التعبير ، متخيرة الألفاظ .

ولكنه حين يستلم إلى الطبع وحده يهبط عن مكانته ، ويصف ، أبـن رشيق في أـسترساله وارتجاله : " ينزل شعره عن مرتبته " ^(١) وهو حكم صحيح ، لانه تنقصه متانة التعبير ، وفخامة اللفظ وحسن السبك . ومثل هذه الحالة نجدها عنها لكثيرين من شعرائنا المعاصرين ممن يقتصرون إلى توافر الثروة اللغوية ، كإيليا أبي ماضي وغيره من شعراء المهجر ، في حين يجمع الجواهري مثلاً بين شدة أسر اللغة ، وطرفة المعاني ، ولكنه تنقصه ، موسيقية الفاظ شوقي ، وجمال صورة الشعرية ، ويمتلك الرصافي - مثلاً - فخامة اللفظ في كثير من شعره ، مع قلة طراوة في المعاني ، في حين نجد أحاسيس متألمة وعواطف جياشة في شعره الاجتماعي ^(٢).

فمن العسير أن يمتلك الشاعر كل مقومات الشعر اللغوية والدلالية وإذا توافرت تلك الأدوات كان الشاعر عملاقاً ، وبلغ الشيء في الإبداع والجدة والأصالة ، ولقد وضع النقاد أيديهم على جملة ممن أمتلكوا شيئاً من تلك الصفات ، فيقول : أبـن رشيق : ومن الشعراء من شعره في روئيته وبديهته - عند الأمن والحدث لقدرته وسكون جأشة وقوة غزيرة ، هدبة بن الخشرم العذري وطرفة بن العبد البكري ، ومرة بن محكان السعدي ^(٣)..... وعبيد بن الأبرص ^(٤) ويضع صاحب العمدة صفات للشاعر الجيد ، الذي يصدق عليه لقب شاعر ، فيقول : " ونما سمي الشاعر شاعراً ، لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره فأذا لم يكن عنده الشاعر توليد معنى ، ولا اختراعه ، أو أستظرف لفظ وأبتداعه ، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني ، أو نقص مما أطاله سواه من الألفاظ ، أو صرف معنى

(١) العمدة : ١٩٣/١ .

(٢) من ذلك ٠ مثلاً - قصائده في (اليتيم في العيد) أو (الأرملة المرضعة) التي مطلعها :

تمشي وقد أثقل الإملاق ممشاها

والدمع تذرفه في الخد عيناها

لقيتها ليتني ما كنت القاها

ثيابها رثة والرجل حامية

(٣) العمدة : ١٩٣/١ .

(٤) نفسة : ١٩٤/١ .

إلى وجه من وجه آخر ، كان أسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة . ولم يكن له من الفضل إلا الوزن ، وليس يفضل عندي مع التقصير " (١).

من خلال مقولة ابن رشيق ، يمكن وضع اليد على الصفات التي ترشح الناظم إلى صحة كونه شاعراً في النقاط الآتية :

١ - توفر الشعور والإحساس فيه .

٢ - توليد المعاني واختراعها .

٣ - تخير الألفاظ وابتداعها.

٤ - تفوقه على غيره في المعاني والصور الشعرية .

٥ - التخلص من الإطالة في الألفاظ التي لا طائل تحتها.

٦ - التصرف في وجوه المعاني .

فإن توافرت هذه الشروط ، كان الشاعر جامعاً بين الخصلتين في النظم ، النحت والأغتراف ، فكان الإبداع .

ثبت بأهم المصادر والمراجع

- أخبار أبي تمام - الصولي (٣٣٥هـ) ط : لجنة التأليف : ١٩٣٧ م - مصر .
- أساس البلاغة - الزمخشري (٥٣٨هـ) ط: الشعب - مصر .
- الأصمعيات : الأصمعي (٢١٥هـ) ط دار المعارف : ١٩٦٤ م - مصر .
- الأغاني : أبو الفرج (٣٥٦هـ) دار الكتب - مصر .
- الإيضاح القزويني (٧٣٩هـ) ط:د محمد عبد المنعم الخفاجي - مصر.
- جمهرة أشعار العرب - القرشي - طنبولاق : ١٣٠٨ هـ - مصر .
- خزائن الأدب - البغدادي (١٠٩٣هـ) ط : بولاق - مصر .
- ديوان أبي تمام - طبعة حجازي - مصر .
- ديوان الأخطل - طبعة بيروت ١٨٩١ م .
- ديوان الأعشى - طبعة فينا : ١٩٢٧ م .
- ديوان امرئ القيس - طبعة دار المعارف : ١٩٥٨ م - مصر .
- ديوان البحترى - طبعة الجوانب : ١٣٠٠ هـ - مصر .
- ديوان بشار - طبعة لجنة التأليف : ١٣٦٩ هـ - مصر .
- ديوان جرير - طبعة عبد الله الصاوي - مصر .
- ديوان جميل - طبعة المكتبة الأهلية - بيروت : ١٩٣٤ م .
- ديوان ذي الرمة - طبعة المكتبة الأهلية - بيروت : ١٩٣١ م .
- ديوان زهير بن أبي سلمى - طبعة دار الكتب ١٩٤٤م - مصر .
- ديوان طرفة بن العبد - طبعة قازان : ١٩٠٩ م .
- ديوان عمر بن أبي ربيعة - طبعة بيروت .
- ديوان الفرزدق - طبعة مطبوعة : المطبعة الأهلية - بيروت في ضمن مجموعة خمسة دواوين وثانية طبعة الصاوي .
- القاموس المحيط - الفيروز (٨١٧هـ) - ط : مصر.
- ديوان كثير عزة - ط الجزائر : سنة ١٩٢٨ م .
- ديوان أبي نؤاس : طبعة مصطفى محمد ١٩٤٥ م - مصر .
- الشعر والشعراء : ابن قتيبة ط : عيسى الحلبي : ١٩٧٢ م - مصر .
- الصحاح : الجوهري (٣٩٥هـ) ط - مصر .
- الصناعتان للعسكري (٣٩٥هـ) ط - مصر .
- الضرائر : ابن عصفور (٦٦٩هـ) : ط السلفية : ١٣٤١ هـ ، مصر.

- طبقات فحول الشعراء : أبين سلام (٢٣١ هـ) - دار المعارف : ١٩٥٢ م - مصر .
- العمدة ابن رشيق (٤٥٦ هـ) : ط حجازي - القاهرة : ١٩٣٤ م .
- عيار الشعر : ابن طباطب : دار المكتبة التجارية - ٩٥٦ م - مصر .
- قواعد الشعر - ثعلب (٢٩١ هـ) ط : مصطفى الحلبي : ١٩٤٨ م - مصر .
- لسان العرب - ابن منظور (٧١١ هـ) : ط : بولاق - مصر .
- معاهد التنصيص - العباسي (٩٦٣ هـ) : ط ١٣١٦ هـ - مصر .
- الموشح : المرزباني (٣٨٤ هـ) - علي محمد البعجاوي : ١٩٦٥ - دار نهضة مصر .
- نقد الشعر : قدامة ط : الخانجي : ١٩٦٣ م - مصر.